الافتتاحية

محاربــة الإســلام
عن طريق الفرق والأحزاب

أسعد أعظمي بن محمد أنصاري

نشوء الفرق والأحزاب في الإسلام لم يكن مستغربا، بل جاءوفق التنبؤ من الصادق المصدوق خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم، فقد أخبر بكل صراحة: "أن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة، ثنتان وسبعون منها في النار، وواحدة في الجنة" (الصحيحة) كما أخبر بتواجد طائفة قائمة على الحق وأن وجودها يستمر إلى قيام الساعة حيث قال: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك" (مسلم) وقد جاء ذكر خصائص وصفات الفرقة الناجية وكذلك خصائص وأمارات الفرق الهالكة في أحاديث ثابتة كثيرة ليس هذا أوان إيرادها. وإنما المقصود الإشارة إلى ذلك التنبؤ النبوي وتحققه على أرض الواقع.

والنبي الهادي صلوات الله وسلامه عليه لم يكتف بالإخبار عن التفرق والاختلاف في الأمة، بل أرشد إلى الموقف الذي يجب أن يكون عليه المسلم عند حدوث الاضطراب والافتراق. فقال عليه الصلاة والسلام: "إنه من يعش منكم بعدي يرى اختلافا كثيرا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين بعدي، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة". (الصحيحة)

وعند ما أخبر بوجود ثلاث وسبعين فرقة في الأمة وأن واحدة منها هي الناجية سألوه: من هي يا رسول الله! فقال: "ما أنا عليه وأصحابي" بهذه الكليمات لخص معالم طريق الفرقة الناجية وما تمتاز بها عن غيرها من الهالكين. وهي بكل وضوح واختصار "ما أنا عليه وأصحابي".

بدأت نشأة الفرق منذ وقت مبكر من تاريخ الإسلام، ولا زالت تتولد من غير انقطاع، وتختلف هذه الفرق بحسب قربها أو بعدها عن الإسلام الحقيقي والدين الخالص. وهناك فرق اعتبرت محسوبة على الإسلام والإسلام منها بريء، لاشتمالها على عقائد ومبادئ تصادم الإسلام وتضاد أهدافه وغاياته تماما.

ومن الفرق المنتسبة إلى الإسلام ما هي عبارة عن خليط من الأفكار والنظريات المقتبسة من مختلف الأديان والمذاهب والفلسفات، لكنها تصر على أن تعتبر نبتة إسلامية، ولا يحلولها الانتساب إلى أي ديانة أو فلسفة أخرى.

إن أعداء الإسلام وجدوا – على مر التاريخ – بغيتهم في هذه الفرق والطوائف، وعدوا وجودها مكسبا كبيرا يسهل لهم النيل من الإسلام والقضاء عليه حسب زعمهم. لأنهم على معرفة ويقين بأن سر قوة الإسلام والمسلمين يكمن في الالتزام بتعاليم الدين الخالص، والذي هو عبارة عن كتاب الله وسنة رسول الله على فهم الصحابة والسلف الصالح. وأن العدول عن المسار الصحيح والإسلام النقي إلى الطرق الملتوية والأفكار المحدثة هو السبب المباشر لإضعاف قوة المسلمين وإحباط معنوياتهم وكسر شوكتهم. فهؤلاء الأعداء لما عجزوا عن مقاومة المسلمين في ميادين القتال لجأوا إلى وسائل وأساليب رأوها تحقق آمالهم من غير عناء. منها تشجيع الفرق والمذاهب المنحرفة والمحسوبة على الإسلام، وكفالتها ورعايتها والدفاع عنها، واعتبارها ممثلة الإسلام والمسلمين، وتجاهل الملتزمين بالإسلام الحقيقي والدين الخالص النقي، بل محاولة إبعادهم عن المسرح وتصويرهم بصورة نبتة زائدة في أرض الإسلام.

ولقد أخذ هذا التشجيع مظاهر عديدة وأشكالا متنوعة، بدءا من إنشاء الفرق وتوليدها، ومرورا برعايتها وكفالتها، وانتهاء بحمايتها والدفاع عنها. فالعارفون على علم بأن هناك فرقا وأحزابا كان للأعداء يد قوية في توليدها وإخراجها إلى حيز الوجود، ففي أيام الاستعمار في الماضي القريب نشأت فرق وطوائف بمحض تشجيع من المستعمرين الذين كانوا يعانون مشقة كبيرة ومقاومة شديدة من قبل المسلمين تحول

دون تحقيق مآربهم في بث السيطرة الحكومية وسلب خيرات بلاد المسلمين. فوقفوا على خونة مرتزقة تبيع ضمائرها بثمن بخس دراهم معدودة. فاستغلوهم واستخدموهم واستخرجوا منهم فتاوى بتحريم جهاد المستعمرين ووجوب موالاتهم واعتبارهم حكاما شرعيين لهم السمع والطاعة. وكذلك شجعوا على إحداث البدع والمحدثات في أشكال وألوان متنوعة مع الإيحاء بالعض على هذه المحدثات بالنواجذ واعتبار أي نقص أو تساهل فيها نقصا في الدين وخروجا عن الإسلام.

أما رعاية الفرق وكفالتها فحدث عنها ولا حرج. هذه الفرق تلقى دعما ماديا ومعنويا من القوى الكبرى قد لا يخطر في بال كثير من الناس. ففي حين ترى عامة المسلمين ومنظماتهم وجمعياتهم تعمل في بساطة وتشكو من قلة الموارد وكثرة المصارف وتواجه العقبات والتضييقات، تجد هذه الفرق ورجالها في رغد من العيش وسعة من المال، مستواهم المعيشي مرتفع، ووسائل نشر أفكارهم ومحدثاتهم مهيأة، وأبواب كل الجهات المعنية عليهم مفتوحة، وكل أنواع التسهيلات لهم ميسرة.

نحن نشاهد منذ عدة سنوات الطرقيين والصوفيين في الهند في غاية من النشاط والتحرك، ينفقون أموالا باهظة ويتخذون وسائل متنوعة لنشر أفكارهم وخرافاتهم واعتبارها الإسلام بعينه مع تضليل كافة الطوائف الإسلامية بل رميها بالكفر وعداوة الإسلام وعمالة الأعداء. ومن أبرز نشاطاتهم عقد المؤتمرات والندوات العالمية والإقليمية على مستوى كبير، ودعوة المشاركين من مختلف الدول الإسلامية والعربية والغربية، واستضافة الشخصيات العالمية السياسية والعلمية ذات النفوذ والتأثير، ولو كانوا معروفين بمواقفهم العدائية للإسلام والمسلمين وكل ما يمت للإسلام بصلة. فقد عقدوا في العام الماضي مؤتمرا عالميا كبيرا في عاصمة الهند، وكان من جملة ضيوفهم بل على رأسهم رئيس الوزراء الهندي الحالي الذي حدث في أيام ولايته على غوجرات ذلك المقتل الكبير للمسلمين قبل ١٥ / عاما، والذي استنكره العالم كله وندد به، وقد أغلقت عدد من الدول أبوابها أمام هذا الحاكم على إثر هذا المقتل، منها الولايات المتحدة الأمريكية، إظهارا لشجبها وإنكارها لهذا الحادث الفظيع. ومنذ ذلك الحين

يعرف هذا الحاكم كأكبر عدو للإسلام والمسلمين في الوقت الراهن. وهو منذ توليه منصب رئاسة الوزراء في البلاد يحاول التودد إلى هذه الفرق والطوائف المنحرفة ورعايتها والإنفاق عليها، وذلك للإيحاء بأنه يعمل لصالح المسلمين ونهضتهم ورقيهم.

ومن وسائل القوم وأساليبهم إحياء ذكرى الشخصيات التاريخية المعروفة بنشر البدع والأوهام والأفكار المنحرفة. فهؤلاء يبحثون عن أمثال هذه الشخصيات ويخرجونهم من ركام الخمول والنسيان، ويسلطون الأضواء عليهم وعلى ما يعدونه من تراثهم ومآثرهم،ويفتخرون بالانتماء إليهم وإلى ضلالاتهم.

يجدر بالذكر أن برامجهم ونشاطاتهم لا تخلو من همز ولمز ونيل من الجماعات والدعوات المعروفة بسلامة عقائدها ونزاهة أفكارها ومجانبة البدع والضلال، فهؤلاء يبذلون جهدهم ويفرغون طاقتهم في برامجهم المتنوعة لإثبات كفر هذه الجماعات وعدائها للإسلام، واختلاق التهم والأكاذيب لنسبتها إليها، ولا يستحيون من دعوة الحكومة ورجال الأمن لإلقاء القبض على رجالها وتقديمهم للمحاكمة باعتبارهم مسؤولين عن كل الفساد والإرهاب، والله المستعان.

فإذا كان أعداء الإسلام في كل مكان يستهدفون حملة الإسلام النقي ويضيقون عليهم لأنهم يعرفون أنهم القوة الحقيقية لهذا الدين، وأن القضاء عليهم يعني القضاء على هذا الدين، فأمثال هؤلاء الطوائف المنحرفة تقف معهم جنبا إلى جنب، وتسهل مهمتهم، وتمدهم بالأدلة والبراهين المختلقة لتحقيق مآربهم. وكل ذلك لمجرد اختلافهم معهم في بعض الأفكار والنظريات، مع علمهم بأن الجميع من أهل القبلة ومن الناطقين بالشهادتين، يقيمون المساجد، ويعبدون الله وحده، ويتميزون عن أهل الشرك والكفر بذلك كله. ولكن خلافهم معهم في بعض الأمور يحملهم على معاملتهم أشد من معاملة أهل الكفر والطغيان، فأي دين يحملونه؟ وأي تزكية تلقوها والتي يفتخرون بها؟ وأين هم من التوجيه النبوي: "المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه (ولا يخذله) .." وهل هناك خذلان بعد هذا الخذلان وإسلام بعد هذا الإسلام؟

كيف يتجاهل هؤلاء بأن الإسلام هو المستهدف، وبأن أعداء الإسلام وإن تجاملوا معهم لبعض الأسباب العارضة ولكنهم ينظرون إلى جميع المسلمين نظرة عداء، ويحلمون بالقضاء على الجميع، فإذا تحقق لهم بعض أهدافهم فإنهم لا يتوقفون عند هذا الحد، بل يشجعهم ذلك إلى مواصلة الجهد وإكمال المشروع. وإن كنا نحن على يقين جازم بأن القضاء على الأمة واستئصال شافتها حلم لن يتحقق، بل المتحقق هو وعد الله بحفظ عباده المستقيمين، وقد جاء ذكره في الأحاديث النبوية الشريفة، منها قوله صلى الله عليه وسلم:

"لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك". (مسلم) وقوله: "إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامة، وأن لا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد! إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة، وأن لا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم، يستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها – أو قال من بين أقطارها – حتى يكون بعضهم يهلك بعضا ويسبي بعضهم بعضا". (مسلم)

إن على أهل السنة والجماعة أيضا أن يكونوا على يقظة من الذين يتربصون بهم الدوائر ممن ينتمون إلى دينهم ويتكلمون بألسنتهم. فهؤلاء يحتسبون بالإساءة إليهم وإيصال الأذى إليهم والوشاية بهم إلى الأعداء والشماتة بهم، ويخصونهم بالبغض والكراهة، ويفرحون بتسلط الأعداء عليهم، ويجاوزون في ذلك كل الحدود المشروعة والمعقولة، ويعمل هؤلاء ليل نهار ويبذلون أقصى جهدهم بالتنكيل بأهل التوحيد وأهل السنة، أما معاملتهم مع أعداء الدين من أهل الكفر والشرك والإلحاد فهي معاملة المودة والصداقة والعفو والسماح. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

❖❖❖